الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

حديث العبقرية

بين علم الاجتماع وعلم النفس

للاستاذ حسنى طه شكيبانه

العبقرية وظاهرة الأديان فى الاجتماع :

فى نظرية من نظريات علم الاجتماع .. أن المجتمع هو الذى يملى سيطرته على الناس فيفرض عليهم التقاليد ، ويدفعهم فى تيار المعيشة والتطور لايكادون يخرجون عنه ؛ حتى إذا ما أصبحت التقاليد بالية لا تساير التطور ، ولا تشبع رغبات الناس ؛ وضع المجتمع خطوطاً عريضة لتقاليد جديدة أكفى لحاجات المجتمع وضروب متعته ؛ فما تزال هذه التقاليد الجديدة تملى إرادتها على الناس ، وتصرخ فيهم حتى يستجيب لها واحد منهم ليصوغها فى صورة قوانين تصلح من شأن المجتمع أو تعطيه الثقة بنفسه ، وتزيد من رضاه وإسعاده .

والمثال خير تفسير لذلك ...

تقاليد كالكرم وحفظ الجوار على الحرمات ، والإيثار وغيرها تشيع فى المجتمع العربى . وتقل فى المجتمع الغربى . . .

وما ذلك إلا لأن المجتمع العربى لا يجد السكينة والأمن والسعادة إلا إذا شاعت فيه هذه التقاليد ؛ ومن ثم أملى المجتمع العربى على المفكرين والأدباء صوته فانطلقت حناجرهم بتقديس هذه العادات والتغنى بها وتخليدها فى فلسفة حياته ، وأناشيد متعته ، حتى صارت جزءاً من كيانه .

ولو لم يجد فيها المجتمع رضاه لنبذها ولقاومها ولنشد غيرها . . .

وكذلك كل ظواهر المجتمع ...

وأما المجتمع الغربى ففيه من مظاهر الاستقلال الذاتى ، والعزلة ما لا يحبذ الكرم

وفيه من الحرية مالا يحتم الحفاظ على الحرمات ؛ فالمرأة أن تتصرف بكامل حريتها كالرجل ولا شأن لأحد بها ما دامت قد بلغت رشدها ، ومن ثم شاع التحرر من كثير من مظاهر الفضيلة وانخرطوا فى سلك الإباحية كثيراً . . .

وبالتالى لم تجد هذه التقاليد الشائعة فى مجتمعنا العربى صوتاً لها فى المجتمع الأوربى ؛ فأصبح من المألوف — مثلا — أن تزور بيتاً غريباً قبيل الطعام لضرورة ما فلا تجد ترحيباً بك بحجة أنهم لم يستعدوا لك ، ولكن الحقيقة هى فى طبيعة الكرم التى لا تجد سبيلا إلى قلوبهم ، وإلا لشاركوك ما عندهم أو على سبيل المجاملة . . أما العربى فعلى عكس ذلك يؤثرك بأحسن ما لديه ، ويحتال لدعوتك متى سنحت له الفرصة ، ويعتبر ذلك سعادة يتغنى بها . . .

يا ضيفنا . . لو زرتنا . . لوجدتنا . . . نحن الضيوف ، وأنت رب المنزل . . . فتلك تقاليد وجد المجتمع سعادته فيها فأملاها على المفكرين والأدباء وعلى عكس ذلك وجد الغرب سعادته فكان أدب وتقليد آخر . . .

العباقرة والمجتمع :

ويأتى هنا حديث العباقرة والقادة . . قادة المجتمع فى الفن والأدب والحكم وضروب الإصلاح فهؤلاء لا يخلقون انفسهم وإنما يخلقهم المجتمع : فما كان لهم أن يظهروا على مسرح الحياة وضمير التاريخ ، ويتصدروا المحافل إلا لأن المجتمع أملى حاجاته فاستمعوا هم إليه فكان ضميناً لهم أن يجعل منهم أكثر من أناسى عاديين . . أن يجعل منهم قادة وزعماء . . إذ لو لم يكن المجتمع فى حاجة لهذه التقاليد لما ظهر دعاتها ، ولوجدوا من القهر وسطوة المجتمع ما يبددهم ويقبر أسماءهم معهم . . .

وخذ لذلك مثلا آخر . . .

دعوة — كالشيوعية — فى الشرق تعارض تقاليد مجتمعاته ومقدساته وعقائده ، ومن ثم لا تجد أنصاراً لها ، وأنصارها أغرار لا يفقهون حكمة الحياة كما رسمتها الأديان ، ولا تجد قادة لها لأن المجتمع يغنى بتقاليده عن تقاليد لا تسعده ولا تقنعه . . فالمجتمع العربى يقدس حرية الفرد ، ويحافظ على كيان الجماعة ويحترم الملكية الفردية وقوانين الربح والإنتاج بحيث تفتح أبواب الطموح ، والمنافسة الكريمة ، ليعطى كل فرد آخر رشفة فى رحيق الفكر ليرقى هو ، وليدفع بها موكب التطور الجماعى . . . كما يقدس ثمرات الأديان من الإيمان بالله العظيم خالقاً رازقاً ، ومدبراً حكيما ،

والايمان بالبعث والخلود والثواب والعقاب والإيمان بالضمير الحى خفقة من كيان الحياة لا شرارة من تيار الكهرباء فى الجسد المادى ، أو من تفاعل العناصر ، كما تزعم الشيوعية فى مفاهيمها الماديه الجامدة ، ومن ثم فالمجتمع يرفضها ، ويقضى على أفكارها فى عقول المغرورين بها ، إما بالإقناع أو بالاعتزال عن موكب الحياة الحى . . .

وهكذ يسند علماء الاجتماع نظريتهم تلك . . فما وضع الدين عندهم ؟ . .

الدين والمجتمع :

والدين — كل دين — كأى من الظواهر الاجتماعية لاشيوع لتقاليده وعقائده ولا ظهور لقادته من نبي ورسول ، أو واعظ ومرشد ما لم يجد المجتمع سعادته ورضاه فى هذه التقاليد فيسهل على الداعية الروحى أن يسطر للناس ما وعاه ضمير المجتمع ، ومن ثم ظهر الإسلام — مثلا — فى المجتمع المدنى ، ولم ينتشر فى المجتمع المكى من قبل ، وكذلك فى الأديان الأخرى فى المجتمعات المختلفة .

وعلماء الإجتماع — لا يتعرضون — للخالق العظيم — كمصدر للتشريع الدينى الذى يأتى به الرسول ، ولا يتحدثون عنه — سبحانه — كخالق للكون ، فذلك مبحث علم الفلسفة — وهو خارج عن مجال علمهم ، ويدعون ذلك لكل عقل يفهم ما يشاء ، وإنما يهمهم أن يؤكدوا شيوع الأديان حيث تبحث المجتمعات عن مبادىء وعادات غير ما هى عليه فينجح النبي بقدر هذه الحاجة فى نشر تعاليمه التى ماهى إلا صورة لرغبات المجتمع وحاجاته المتطوره ...

واسنا هنا فى معرض الرد عليهم بقدر ما نسجل مقياسهم ونظريتهم فى العبقرى والقائد والمصلح والزعيم ، وحسبنا ذلك فى إلزامهم الحجة فى منطق الحق بشخصية رسول الإنسانية الكريم وعبقريته التى لا تجد لها مثيلا — من قبل ومن بعد .

والواقع أنهم يقررون مبدأ سليما فى شيوع الأديان بقدر حاجة المجتمع ورغباته فقد جاء كل نبي لقومه بما يسعدهم ويصلحهم ، وما هم فى حاجة حقيقية إليه ...

بيد أنه من غير المسلم — تاريخياً — أن المجتمع كان يقضى على النبي لدعوته بغير ما يحب المجتمع فذلك إن حدث فى بعض المجتمعات اليهودية مع أنبيائهم حيث قتلوا الكثيرين منهم ؛ إلا أنه ليس القاعدة العامة .. بل القاعدة ضياع هذه المجتمعات كان لإصرارهم على تقاليدهم البالية ، ورفضهم مبادىء الأنبياء ومثلهم ، وقد كان فيها

دون سواها النجاة ، والهناءة ، فكذلك تدمرت حضارة فرعون فى مصر ، وتقوض سلطان قارون ، ودالت دولة أصحاب شعيب وصالح وهود ، ونجت المبادىء فى أنبيائها ومن تبعهم . . .

وذلك عكس ما يقدر علماء الاجتماع فى نظريتهم السالفة . . .

ولكن لنترك ذلك ولنمض معهم وقتاً آخر . . .

مكانة العباقرة :

وعلماء الإجتماع لايغمطون العباقرة حقهم ، فهم وإن لم يصنعوا مجتمعاتهم لكن لهم رأياً وألمعية وذكاء وصفاء يقرءون به ضمير المجتمع فى حاجاته ، وعندهم المقدرة البلاغية الأدبية فى صياغة هذه التقاليد مبادىء يرضى عنها الناس ويرتاحون إليها فلهم ميزة الإدراك والإحاطة والتسجيل . ولهم كرامة لا تنكر . . .

وبقدر تمتع القائد بقدرات خطابية وإقناعية وملكات فى الحفظ أو التشريع أو الفهم الاقتصادى أو الحربى أو غير ذلك بقدر نجاحه فى إرساء هذه القواعد شعارات للناس بعد ما كانت فى ضمير المجتمع . . .

الاسلام ومقاييس علم الاجتماع :

وتطبيقاً لنظرية علم الاجتماع هذه ، فالإسلام نبع فى المجتمع العربى لأنه كان فى حاجة إليه ، ثم انتشر فى آفاق العالم حيث كانت هذه الآفاق تتطلع إليه وتبحث عنه فانتشر فى ثلثى العالم بعد ما شق بمبادئه التى كانت تنظم حياته وتقوده فى موكب التطور بين الجمود والضلال والفوضى ، فحيثما سعد المجتمع بمبادىء الإسلام رسخت فيه مبادئه فى شرق وفى غرب ، فكان هذا الذيوع والانتشار فى أقل من قرن من الزمان . . .

وهنا نسجل — بمنطق التاريخ — واستطراداً مع هذه النظرية .

أن العالم فى كثير من نواحيه كان يترقب فجر الإسلام بعد ليل طويل من ضلالات العقائد ، وفساد التقاليد ، وإلا فما كان لمجتمع سعيد بمبادئه أن يتخلى عنها إلى مبادىء غير هاما لم يجد فى هذ الجديد سعادة أجل وأروع .

ونتيجة لذلك — ينبغى — على رجال الاجتماع فى كل أمة ، وجنس ودين ، أن يدرسوا مبادىء الاسلام ليروا كيف دان لها الشرق والغرب فى سهولة وطواعية

بل كانت وحى الغرب حين صاغ الكثير من فقهه فى الحياة ونظمه وتقاليده وعزيمته فى موكب التطور ، حيث تلقى ذلك فى الشرق الاسلامى ومعاهده ، فى قرطبة وبغداد ودمشق والقاهرة . . .

وسيجدون — حقا وصدقا — أنها مبادىء الخلود والرفعة ، وإنها مثاليات الحياة لكل عصر ومكان .

فإننا فى عصر ينبغى أن تأخذ المبادىء طريقها فى قيادة الحياة قبل أن تقودها الأنانية فى طريق الدمار . وحينئذ سيقتنعون بفشل أو قصور كل المبادىء الوضعية أن تجلب السلام والرخاء للعالم ، وأن كمال الحياة إنما يجد الصورة المثالية فى رسالة ترى الإنسانية رابطة مقدسة بين كل إنسان وإنسان مهما اختلف لونه وشكله وجنسه ووطنه ، وأن الناس جميعاً لأب وأم ، وعليهم أن يتعاونوا فى الخير والحق ، وأن يمسكوا عن الشر والعدوان . . .

وتلك بعض مبادىء الإسلام . . . فهل آن لعلماء الاجتماع أن يعطوا شهادة الحق فى جانب تقاليده ومبادئه ؟ ! .

سيقول قائلهم : إننا نترك للمجتمعات تقرر ما تحتاجه من المبادىء وتختار . .

ولكنهم ينسون مكر الليل والنهار فى تشويه حقائق الإسلام وتزويرها على المجتمع الغربى ، ثم ينسون أن مبادىء الغرب كلها فشلت أن توفر الهدوء للعالم فدمرته فى حربين عالميتين بينهما أقل من ربع قرن وهى هى ما تزال تدفع موكب التطور لإتقان وسائل الدمار لا أدوات السلام والرخاء . . .

وإن هذا ليلقى التبعة كبيرة على رجال الإسلام أن يبلغوه فى صفائه لهذا العالم فى شرق وفى غرب فهو مرفأ الأمان ، ومشرق نور الحياة ، ومناط التطور .

والآن أين هذا المقياس من شخصية المصطفى الكريم صلوات الله وسلامه عليه ؟

شخصية الرسول وعلم الاجتماع :

إن مراجعة يسيرة لسيرة الرسول الكريم ومبادئه وآثاره فى العالمين تقنع كل ذى ضمير من أصحاب علم الاجتماع ، وكل منصف فى الحياة بأن الرسول الكريم نسيج وحده من قبل ومن بعد ، فلا يدانيه نبى ولا فيلسوف ولا مصلح ولا قائد

ولا زعيم فى شخصيته ، وفقهه للحياة والمجتمع وتطوره بالمجتمع إلى صورة مثالية بعد صورة من الهمجية والفوضى كبيرة . . .

فكل فيلسوف قبله أو بعده لم يعط صورة للوجود كما جاء بها المصطفى الكريم .

ولم يعط من مثاليات الأخلاق وجماع الفضائل كما رسمها محمد الكريم .

ولم يطبق ذلك على نفسه ويحمل عليها مجتمعه كما فعل المصطفى الكريم .

وكل زعيم قبله وبعده لم يؤثر عنه مثل ماقعله محمد الكريم فى قيادة أمة من البداوة والجهالة إلى أمة المجد والخلود والتاريخ . أمة ليس لها كيان ، فكان لها بمحمد الكريم ومثالياته أى شأن مع الحياة وإلى الأبد . .

وكل نبى من قبله لم يأت بمثل ما جاء به محمد الكريم . . جاءوا من قبله لشعوب بعينها ، وأزمنة محدودة ، وجاء هو لكل إنسان ولكل زمن ... جاء موسى لينقذ بنى إسرائيل ويحررهم من عبوديتهم لفرعون وطغيانه ، وجاء من بعده داود وسليمان وإيليا وذكريا ويحيى وأشعياء ويوشع ، وكلهم وغيرهم فى بنى إسرائيل وحدهم هداة ومرشدين ، وجاء عيسى كلمة الله وروح منه هادياً لخراف بيت إسرائيل الضالة كما يقول فى الإنجيل ، وما جاء بتشريع جديد بعد التوراة بل ليكمل الناموس فيها .

أما محمد الكريم فجاء للناس كافة بشيراً ونذيراً ، وجاء رحمة للعالمين وسراجا منيراً ، ولكل قوم هاد ، وبقرآن محفوظ إلى يوم الدين تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ولكل إنسان كريم فى هذه الحياة ، ولو كان أخو موسى حيا فى زمنه ما وسعه إلا أن يتبعه ، وجاء بتقاليد الكمال لكل عصر ومكان تنتظم الأبيض والأسود ، والأصفر والأحمر فى نطاق الأخوة والمساواه والمرحمة وخير الناس لديه أنفعهم للناس ، وأبرهم بهم ، ودعوته معلنة : أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم .